المشتي كتاب لم يتمهُ ذكرهُ المحبي في خلاصة الاثر قال ولو تم لجاء كتاباً عجيباً

واصطلح العرب ان ما ينظمهُ الشاعر من الكتب الدينية والاحاديث النبوية مطلقاً يسمونهُ اقتباساً . وما يأخذونهُ من كلام غيرهم ويشيرون اليهِ تضميناً . وما ينظمونهُ من المنثورات عقداً . وما يشيرون اليهِ من قصة او حادثة او مثل ونحوها تلميحاً . الى غير ذلك مما لا محل للافاضة فيهِ وسانتخب من كل من هذه الانواع ما فيهِ فائدة وتفكهة ان شاء الله

عيسى اسكندر المعلوف

المتاولة او الشيعة في جبل عامل

(تابع ما قبلهُ)

بدء خضوعهم

ولما استقل الجزار بعكاء بدأ باخضاع المتاولة فكانت لهُ معهم وقائع آخرها واقعة يارون حيث ساق عسكرهُ على بلاد بشارة فجأة في ٥ شوال سنة ١١٩٥ فاسرع اليهِ ناصيف بعسكرهِ والتقيا في قرية يارون من جبل عامل قرب صفد فكانت النصرة لعسكر الجزار وزلت بناصيف قدم فرسهِ فابتدرهُ احد الجنود يطلق اصاب منهُ مقتلاً وتفرق العسكر وتشتت شملهُ وجاس رجال الجزار خلال البلاد نهباً وسلباً وقتلاً فاستولى الرعب عليهم ثم هدمت القلاع وحوصرت قلعة شقيف ارنون شهرين وفتحت وهدمت وهرب مشايخ البلاد الى الشام والعراق ثم لجأ جماعة منهم الى عكاء فاستأمن الجزار بعضهم حتى اذا وثقوا بامانهِ عاد بهم الى ان ماتوا في سجنهِ وعذابهِ . ووزع عمالهُ على البلاد وكانت البقية الباقية من مشايخ البلاد تحفر بقوتها الضعيفة حتى اذا خرج حمزه بن محمد النصار على مسلم تينين وقتلهُ [illegible] بهِ الجزار سرية واقعتهُ في قرية شحور سنة ١١٩٨ فتشتت شملهُ وقبض عليهِ وقتلهُ

ولما دخل العسكر الفرنساوي تحت قيادة نابليون بونابرت بلاد الشام اعطاهُ المتاولة والصفديون الطاعة من انفسهم تخلصاً من عسف الجزار وظلمهِ الشديد ولما انجلى الفرنساويون واطمأن الجزار في ولايتهِ اشتد على بلاد بشارة وساحل صفد ولم يسمع بكبير او ذي وجاهة الا اخذهُ اخذ عزيز مقتدر واستصفى اموالهُ وتركهُ لرحمة زبانيتهِ في سجنهِ ودامت الحال

من سنة ٢٠٩٠ هـ الى ٢١٩٠ هـ عشر سنين هلك فيها الحرث والنسل . ولما توفي الجزار رجع الى البلاد بعض الراحة وانصرف العاملون الى عمارة ارضهم والسعي في معايشهم الى ان تولى عبد الله باشا الخزندار واشتدت عداوتهُ مع درويش باشا والي الشام فرأى عبد الله باشا ان يعيد للمتاولة سابق عزهم فردَّ مشايخهم حكاماً عليهم واقطع الذين صادر الجزار اموالهم من مشايخهم مقاطعة الشومر كلها لتكون لهم بدلاً من املاكهم المصادرة كان ذلك منهُ ليستعين بهم على حرب درويش باشا فكانوا في جيشهِ الذي اجتمع على جسر بنات يعقوب على نهر الاردن وفي واقعة المزة وغيرها من وقائعهِ مع درويش باشا . ورأيت شيخاً هرماً اخبرني انهُ كان مع من حضر في واقعة جسر بنات يعقوب تحت قيادة الشيخ فارس الناصيف سنة ٢٣٧ .

ولما حل الجيش المصري هذه الديار تحت قيادة البطل المشهور ابرهيم باشا ادخل بلاد بشارة في عمالة الامير بشير الشهابي فقامت من رجاله عسفاً وارهاقاً مبعثة تلك الحروب السالفة التي كانت بين اللبنانيين والمتاولة فكان في محيمهِ في صور زهاء الف رجل لكن ابرهيم باشا عاد فرفع سلطة لبنان عن بلاد بشارة .

في اثناء هذه الكوارث لم يكن لابناء البلاد يد في لم الشعث ودفع الضيم لما تخلل بينهم من أولي الفساد فكان المرء يخشى شر قولهِ ولو في كسر بيتهِ . وكان لعسكر الارناووط والدالاتية جيث يغدون بين عكاء ودمشق وصيداء وبيروت ويقيمون في البلاد سلطة استبدادية تضارع سلطة الانكشارية في اخر مدتهم . وكان فرضاً على البلاد ان تقوم بضيافتهم واعطائهم ما يطلبون الى حد الرضا والوقوف عند ارادتهم بغير مقابل ولا عوض

ولما انجلى العسكر المصري عن سورية رجعت مشايخ بلاد بشارة اليها وتولى الحرب مع بقية الجيش المصري الشيخ حمد البيك وكان قبل ذلك في عسكر الدولة في وقائع حمص وما وراءها فقاد المتاولة ودافع جيش المصريين في وادي الجيس قرب عكاء ثم في صفد وطبرية وفي ذلك يقول الشيخ حبيب الكاظمي مادحاً حمداً المذكور

واطيَّ الظام احكم فيها بما تنصف الحكمة في البين اقساما
ودع الحكمة تعطي قسمها للظبى هاماً وللنحران هاما
ولك السطوة اورث زندها بفلسطين فاكنيت اللهاما
ولكم شاليت قلباً موجعاً بشفا عمرو واجبيت رماما

ولما تم انجلاء العسكر المصري اذنت الحكومة عمل حمد البيك قائد المتاولة فاعطتهُ حكومة

البلاد باسم شيخ مشايخ بلاد بشارة وسكنت البلاد في زمنه الى الراحة واخذت الى السكون وتمتعت بالرغد الى ان اجاب داعي ربه سنة ١٢٦٩ هـ وقام بالامر بعده ابن اخيه علي بك الاسعد صاحب المواقف المشهورة في حوادث ١٨٦٠ المدافعة لدى فؤاد باشا المشهور وفي بعضها يقول

بني عمنا من آل فهر ويعرب حماة الغداري في الهياج وسورها
نشدتكم هل موقفي كان هينا لدى الحفرة العليا التي عن طورها

فكانت ايام علي بك ايام رغد وهناء زهراء ممرعة لو لم تشب في آخر مدتها بنزاع ابن عمه تامر بك الحسين معه وانقضت ايامه باعتقاله واعتقال ابن عمه محمد بك الاسعد في صيداء ثم في الشام حيث توفيا سنة ١٢٨٣ هـ وقسمت البلاد الى ثلاثة اقضية كما هي الآن ورسخت فيها قدم الحكومة

حالتهم الاقتصادية

ان البحث في تاريخ بلاد بشارة وجبل عامل الاقتصادي قبل القرن العاشر لا يزال قاصراً عن بلوغ درجة التحقيق ولا يخرج البتّ والقطع فيه عن درجة الظن والترجيح ولا تصرّح كتب الاخبار ومخطوطات الاوراق المودعة زوايا المكاتب بشيء من ذلك . ولكن المدقق في النظر يرجح ان الفقر كان متمكناً في هذه البلاد الزراعية حيث كان الاستبداد فيها بالمرصاد . وبعد ان اخذت الدولة العلوية عن بلاد الشام وقامت على اثارها الدولة النورية والصلاحية وانبعثت من جانبي بغداد في الرصافة والكرخ روح التفريق بين السنة والشيعة وحمي وطيس التعصب بين الفريقين واستحكم النفور كان الشيعيون في هذه الديار مأخوذين بجريرة اولئك واصبحوا وفيهم مجال لظهور نيات حكامهم السنيين على قدر صلاحها او فسادها

واذا صحت رواية الامير حيدر من انهم عادوا الصليبيين واعطوهم الجزية ايام استيلائهم على صور فيكون من اسبابها تلك الروح وهاتيك الحالة . ونستدل على انهم انما لجأوا الى غير حاكميهم تخلصاً من ضنك المعيشة وكثرة المغارم وهرباً عن هوة الفقر والخراب كما تخلصوا من عنف الجزار وظلمه بانضوائهم الى حماية جيش نابليون الاول والتاريخ يعيد نفسه . ومن عرف محبة الحاكم في ذلك العصر وهذا المصر للمال واقتناصه اياه باي وسيلة كانت مع فساد نية الحاكم على محكوميه بفعل التعصب السيء علم مقدار الفاقة والظلم ورجح ان الفقر كان ضارباً بجرانه في هذه الديار

اما في القرن الحادي عشر لما اخذت نيران الفتن تلتهب في سورية عموماً وفي لبنان

خصوصاً فقد ازدادت الطين سوءاً واشتغل الفلاح بالفتن والحروب عن النظر في زراعته وموارد رزقه فنضب معين الثروة وعاد اكثر الاراضي مهملاً بوراً . وبعد ان كانت الاراضي الزراعية متسعة الارجاء في بلاد بشارة اصبحت على طول المدة والاهمال مراجاً واسعة ومراعي الا بعض الاراضي المجاورة للقرى والمزارع فانها كانت عاملة لحاجة الاهلين الضرورية فتقوم بما يتبلغ به صاحبها من القوت ويؤدي معها بعض الضرائب

ان الفتن والاشتغال بها ليست هي السبب الوحيد لاهمال الزراعة ونضوب معين الثروة بل ان عدم الامن واختلال طرقه وقلة التواصل مع البلاد التجارية دعى الى بقاء المحصولات الارضية في بيوت اصحابها فهبطت قيمتها وزهد بالزراعة الزارعون . ولم تكن حاجيات السكان في ذلك العصر شيئاً مذكوراً بل لم يكن للاسراف بينهم معنى يعرفونهُ فكانوا يقتاتون بما تخرجهُ لهم ارضهم من الغلات ويلبسون ثيابهم من قطن ارضهم منسوجاً على النوالم ويكتفون بالكافه من ذلك كله . وحسبك ان اكبر ما كان يوصف به الغني عندهم انهُ (الغني) اي يملك الف غرش . ولا غرابة في ذلك فقد كان للغرش يومئذٍ قيمته وقلة وجوده منزلة حسنة بل كان للغرش في كل البلاد العثمانية في ذلك العصر شأن غير شأنهِ اليوم

ومن الامور البديهية ان قيمة النقد واسعار البيوع كلها امور نسبية فاذا كانت قيمة سلعة مثلاً غرشاً واحداً والدينار عشرة كانت نسبة السلعة الى الدينار نسبة واحد الى عشرة

في ذلك العصر اتت على هذه البلاد سنة مجدبة فاحلة بلغ بها البلاء حداً متناهياً بعد ان طاف بها جيش الجراد فلم يبقِ ولم يذر وهي سنة ١٠٧١ هـ وعلى ما رواهُ الامير حيدر ان غرارة الحنطة (وهي سبعمائة وعشرون اقة اسلامبولية) بيعت بثمانين غرشاً في جبل لبنان وفي بعض المخطوطات انها في سنة ١٠٧٠ وان الغرارة بيعت بسبعين غرشاً في جبل عامل ورطل الخبز بيع بثلاثة غروش في دمشق والرطل اقتان او ٨٠٠ درهم . واتفقت الروايتان على ان الجهد بلغ حدهُ في هذه السنة حتى اكلت الناس العظام ولحوم الميتة . اما في سنة ١٠٨١ بعد هذا الغلاء المفرط باحد عشر عاماً فقد بيع الشعير في بلاد بشارة غرارة وقصفاً (٨٠٠ اقة) بغرش واحد وفي جبل لبنان اربعة اكيال حنطة (٢٤٠ اقة) بغرش واحد كما نقلهُ الامير حيدر . ثم عاد الغلاء في سنة ١١٩٥ حتى بيعت الحنطة والفول مدان (٢٠٠ اقة) بغرش واحد والدخان (التبغ) القنطار (٤٠٠ اقة) بمائة وخمسين غرشاً ولكن في سنة ١١٧٠ بيعت الحنطة الغرارة (٢٢٠ اقة) بتسعة وعشرين غرشاً

مما تقدم نعلم ان الحال ارتقت قليلاً في اواخر القرن الثاني عشر عن حالها في القرن الحادي عشر

كان الغرش في ذلك الزمن اربعين بارة كما هو الآن ولكن نسبتهُ الى الذهب هي غير نسبته اليوم. فقد ورد في تاريخ الامير حيدر في حوادث سنة ١١٩٩ ان المثقص (ذهب المجهار) كانت قيمتهُ اربعة غروش وربعاً وهو يعادل نصف الذهب الانكليزي فنسبة الغرش في ذلك العصر الى الليرة الانكليزية في هذه الايام نسبة اثنين الى سبعة عشر فهو اذاً من غروش اليوم ستة عشر غرشاً وكسور ولكن جودت باشا في تاريخهِ يقول انهُ قد ضرب الغرش بوزن ستة دراهم في زمن السلطان سليمان في القرن العاشر ومثلهُ ضرب في زمن السلطان احمد في القرن الحادي عشر فاذا كانت فضة الغرش حينئذٍ خالصة (ولا اظنها) كانت قيمتها الآن تعادل ثلاثة ارباع الريال او اكثر قليلاً ثم يقول بعد ذلك ان الذهب المعروف بزر محبوب كانت قيمتهُ سنة ١١٤٦ ثلاثة غروش وربعاً وهو يقابل نصف ليرة عثمانية فتكون نسبة الغرش الى الليرة العثمانية نسبة اثنين الى ثلاثة عشر وكما ترى هي اعلى من قيمة سنة ١١٩٩ ويقول بعد ذلك ان الغرش في زمن بكوات الفنار يعدل ١١ غرشاً صاغاً (١)

ان حصول الغلاء المفرط الشديد في سنة ١٠٧١ حيث بلغت الاقة من الحنطة مبلغاً عظيماً لا ينالهُ الفقير وهو اربع بارات (لا تزيد في غروش هذا الزمن عن الغرش الواحد) فاستحل لذلك اكل الميتة يدلنا باوضح برهان على مقدار الضيق وقلة النقود في ذلك الزمن. وكان لبلاد بشارة من ذلك النصيب الاوفر والقسط الاكبر فان في سنة ١٠٧١ التي بلغ بها الجهد مبلغهُ في سوريا كان الرطل الواحد من الخبز في الشام بثلاثة غروش ولكن رطل الحنطة في جبل عامل بلغ ثمانية بارات والفرق بين السعرين كالفرق بين ثروة البلادين

بقيت البلاد العاملية في فقرها هذا تتراوح عليها ازمان الشدة والرخاء حتى حل الجيش الفرنساوي تحت امرة بونابرت ارباض عكاء فكان يبتاع ما يحتاج اليهِ من بلاد بشارة وبلاد صفد باثمان عالية تعادل عشرة اضعاف قيمتها قبل ذلك فعرف اهل البلادين طعم الثروة

(١) (المقتطف) ان كتاب الافرنج الذين كتبوا منذ مئة وخمسين سنة الى مئتين سنة يحسبون الليرة الانكليزية عشرة غروش عثمانية فقد كانت قيمة الغرش ثلثين او نحو عشر غروش مصرية او اربعة عشر غرشاً بيروتية

وكثرت النقود بين ايديهم حتى اذا انجلى العسكر الفرنساوي عن عكا واخلى البلاد الشامية رجعت الحال الفهقرى وارعتهم ظلم الجزار فصادر الاموال وشيع الرؤساء في جبل عامل فلم يبق ولم يذر الى ان هلك وتولى الايالة سليمان باشا العظم وبعده عبدالله باشا الخزندار فانصرف الاهلون الى زراعتهم وموارد رزقهم فاصلحوا الارض وجددوا الاغراس ولكن البقية الباقية من شراذم العساكر عادية ورائحة ومقيمة كانت لا تزال مانعة من ركون الفلاح الى الراحة ووثوقه باستدامة الحال

كان الفلاح في البلاد العاملية يفر من عمارة ارضه الا ما تدعوه اليه الحاجة الضرورية فرار الجبان من الزحف حيث كان من يُعرف بانهُ من ذوي الاملاك محملاً لفيافة العساكر التي تجول في البلاد آنا بعد آن ومغرماً للفظة ومناخاً للاستبداد فكان الشقي من كان ذا ارض واسعة وملك كبير

وقد روى لنا الثقات ان وجيهاً من ابناء بلاد بشارة وكان من ذوي التجارة غضب عليه احد زعمائها فاراد نكايتهُ فاقطعهُ قرية كبيرة بتمامها فاستغاث التاجر واستجار من هذه البلية ولم يفز الا بازاحة ثلاثة ارباع القرية عن ملكه حيث بقي لهُ ربعها وهو مصدر ثروة ابنائهِ اليوم

دامت الحال كذلك حتى اكتسح ابرهيم باشا المصري بلاد الشام وفتح ابواب التجارة بعد ان نشر الامن في البلاد عموماً وعرف الناس كيف يتاجرون بمحصولات ارضهم واصبحت مصر سوقاً للدخان (التبغ) البشاري فكان منهُ ثروة عظيمة للبلاد جاءت بكل خير ونعمة وامسى الزارع يرفل بثوب السعادة . بلغني ان قد اضاف بعضهم احد كبار المأمورين فلما مد الفلاح المائدة جعل في جملة الوان الطعام صفحة مملوءة بالذهب الوهاج فعجب المأمور الكبير لذلك وسئل الفلاح عما اراد بهذا فكان جوابهُ لكي تعلموا ان النعمة قد فاضت في بلادنا بعدل دولتنا العلية . فبكى ذلك المأمور الكبير سروراً . وكان بعض القصابين (القحامين) في سوق النبطية فاتاهُ احد زراع الدخان ليشتري منهُ لحماً وليس لديهِ غير العملة الذهبية وليس مع القصاب نقدٌ يرجعهُ اليهِ فقبض منهُ ذهباً ليعيد اليهِ البقية بعد ذلك واتاهُ فلاح آخر فكان كالاول وهكذا الى ان قبض خمسة عشر ذهباً من خمسة عشر فلاحاً . وعلمت ان احد الفلاحين باع من محصولات اراضيهِ تبغاً في سنة واحدة ما قيمتهُ ثلاثمائة ليرة عثمانية قبضها دفعة واحدة . فهذا هذا اليسار وهذا تلك النعمة التي لبست البلاد بها ثوب الهناء

ولما امضت الحكومة شروط انحصار الدخان في الممالك العثمانية مع شركة (الريجي) واستلت تلك الادارة اعمالها ضغطت على هذا المورد العظيم ووضعت العقبات في سبيل زراعته وبيعه فاحجم عنه التجار وهبطت اسعاره هبوطاً عظيماً والقيت عليه الرسوم الباهظة في مصر فراجت الدخان اليوناني وغيره فصار الزارع لا يجد المشتري ليبيعه ولا المشتري يقدم على شرائه حتى لا يقع في شرك ادارة الاحتكار ولا يقدر الفلاح على ابقائه في بيته خوفاً من مصادرة ادارة الاحتكار له ولا هي تشتريه بثمن تعوّض به على الفلاح تعبه فيكون بعد الفرد طعماً للرقود . ومنعت ادارة الاحتكار الفلاح ان يحمل سيكارة من محصولات اراضيه الا ما يخرج من مخازنها موسوماً بسمتها فكان ذلك ضربة اثرت في جسم البلاد الاقتصادي اثراً مدهشاً ولم يمض على النعمة التي كان فلاح بلاد بشارة يتفيء ظلالها ويسحب ذيوله في نعيمها بضع سنوات حتى انعكس الحال وامسى الفلاح بعد ذلك يبيع ارضه واملاكه سدّاً لنفقاته التي عودته عليها نعمة ولم تمض عشر سنوات على ادارة الريجي حتى كانت اكثر القرى ملكاً للذوي الثراء من تجار المدن وسكانها واصبح الفلاح يكد يومه ويشقى في عامه فيملأ جيب مالكه وكان حظه الاوفر من مغارم الحكومة فلم تقم اعانة (او بلسة باصطلاحهم) الا وحملت عليه وقلدت في عنقه وكان على الزارع المسكين ان يوفي مالك ارضه (او شريكه) ويملأ جيب المختار والتحصيلدار ويلتزم الاعشار وانفار الجاندرمة وان يقنع صاحب دينه فلا ينقضي زمن البيادر الا وبيته افرغ من فؤاد ام موسى خالياً خاوياً

ولكن للضيق ازماناً والحاجة تدفع المرء الى سبيل الخلاص من اشراكها . رأى سكان بلاد بشارة ان في المهاجرة الى الديار الاميركية فرجاً وغنى فهاجروا زرافات ووحداناً فكان يرجع الكثير منهم بالقليل من المكسب ولكنه كثير بكثرتهم فارتاشت البلاد ثم تصاعدت اسعار الحبوب فكان للزارع من ذلك الراحة والفرح واسترد بعض الزراع اراضيهم من ملاكها باثمان عالية مضاعفة

حسنت حال ارباب الزراعة اجمالاً رغماً عن الجهل الفاضح بادارة الفلاح اعماله على الاصول الجديدة وان المحراث الذي استعمل منذ الفي سنة لا يزال بعينه محراث فلاحنا اليوم لم يسر عندنا في سنة الارتقاء

لما رأى الزراع ان اعمالهم تعود عليهم بالثمرة زادت الرغبة في توسيع دائرة ارضهم لاسيما بعد ارتفاع اثمانها فعمدوا الى الحراج فاكشحوها حتى جعلوها ارضاً صالحة للزراعة وتعلق الفلاح بسفوح الجبال ومنحطفات الاودية يضيق على الماشية مسارحها باذلاً قصى جهده

في استنبات الغلات ليأخذ منها جزاء عمله و يستدر منها اخلاف رزقه ولولا الاعشار وعسف ملتزميها وضجر الاهالي من استبداد الملتزمين وظلمهم العظيم ومساعدة الحكومة لهم في اعمالهم فضلاً عن مطامع مأموري الحكومة في الزمن الغابر — لولا ذلك — لكان السعة في الرزق والنعمة والثراء عند فلاحي هذه البلاد قديم ثابتة

اما التجارة في هذه البلاد فقد نالت قسطها من النعمة والارتقاء حيث قام بها وفرة الحاجيات لدى ابناء البلاد واخذهم باسباب الرفاهية فكثرت حاجاتهم وكثر المتاجرون بها. وما زال منذ قرون تقام في نواحي جبل عامل اسواق اسبوعية يجتمع اليها الاهلون جناعيم يبيعون و يشترون ما يريدون وقد اشتهرت هذه الاسواق اكثر ايام الاسبوع فلا يمر يوم الا وله في احدى جهات جبل عامل معرض زراعي تجاري صغير واكثر هذه الاسواق اجتماعاً واعظمها تجارة السوق التي تقام في النبطية يومي الاحد والاثنين من كل اسبوع وبها اصبحت هذه البلدة نقطة التجارة في جبل عامل و يقدّر ما يباع فيها سنوياً بما يزيد على مئة الف ليرة من حبوب واقمشة وحيوانات وغير ذلك

النبطية احمد رضا

كتاب عُمَر والقضاء

كتب الدكتور مرغوليوث استاذ العربية في مدرسة اكسفرد مقالة في مجلة الجمعية الاسيوية الملكية ببلاد الانكليز ذكر فيها الكتاب المشهور الذي يقال ان الامام عمر ابن الخطاب كتب به الى ابي موسى الاشعري حينما ولاّهُ الكوفة . وذكر خمس روايات مختلفة من رواياته نشر احداها وهي رواية ابن قتيبة في كتابه عيون الاخبار وعلّق عليها حواشي يستدلّ منها على روايات الجاحظ في كتابه البيان والتبيين والمبرّد في كتابه الكامل والماوردي في كتابه الاحكام السلطانية وابن خلدون في مقدمته . وترجم الكتاب الى الانكليزية وعلق عليه شرحاً مسهباً . وقد رأينا ان ننقل ثلاثاً من هذه الروايات وهي رواية الجاحظ اقدمها ورواية ابن قتيبة وهي تليها في القدم ورواية ابن خلدون وهي احدثها ونشفعها بما يبدو لنا في هذا الشأن . وقد طبعنا الروايات الثلاث متقابلة ليظهر ما بينها من الاتفاق والاختلاف لفظاً ومعنىً وقدّمنا على كل فقرة منها رقماً لتسهيل المقابلة